دروس عملية من دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه

كتبه غريب الديار بتاريخ الأحد ١٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢

دروس عملية من دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه

رأينا في مقال سابق من هذه السلسلة كيف أعلن إبراهيم عليه السلام دعوة التوحيد لقومه, بإعلانه البراءة من الشرك ثلاث مرات, وإعلان التوجه لله مرة واحدة, وكيف أنه بإعلانه هذا يتحدى قومه ودينهم ومقدساتهم, ولذلك بدأ مرحلة جديدة من حياة المؤمن, هي مرحلة الدعوة والمواجهة, وهي التي سوف نسلط عليها الضوء في مقالنا لنتعلم من دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه كيف ندعو أقوامنا عمليا.

سوف نتدارس دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه من خلال تدبر آيات سورة الأنبياء التالية :

﴿ وَلَقَد آتَينا إِبراهيمَ رُشدَهُ مِن قَبلُ وَكُنّا بِهِ عالِمينَ ۝ إِذ قالَ لِأَبيهِ وَقَومِهِ ما هذِهِ التَّماثيلُ الَّتي أَنتُم لَها عاكِفونَ ۝ قالوا وَجَدنا آباءَنا لَها عابِدينَ ۝ قالَ لَقَد كُنتُم أَنتُم وَآباؤُكُم في ضَلالٍ مُبينٍ ۝ قالوا أَجِئتَنا بِالحَقِّ أَم أَنتَ مِنَ اللّاعِبينَ ۝ قالَ بَل رَبُّكُم رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرضِ الَّذي فَطَرَهُنَّ وَأَنا عَلى ذلِكُم مِنَ الشّاهِدينَ ۝ وَتَاللَّهِ لَأَكيدَنَّ أَصنامَكُم بَعدَ أَن تُوَلّوا مُدبِرينَ ۝ فَجَعَلَهُم جُذاذًا إِلّا كَبيرًا لَهُم لَعَلَّهُم إِلَيهِ يَرجِعونَ ۝ قالوا مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظّالِمينَ ۝ قالوا سَمِعنا فَتًى يَذكُرُهُم يُقالُ لَهُ إِبراهيمُ ۝ قالوا فَأتوا بِهِ عَلى أَعيُنِ النّاسِ لَعَلَّهُم يَشهَدونَ ۝ قالوا أَأَنتَ فَعَلتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبراهيمُ ۝ قالَ بَل فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فَاسأَلوهُم إِن كانوا يَنطِقونَ ۝ فَرَجَعوا إِلى أَنفُسِهِم فَقالوا إِنَّكُم أَنتُمُ الظّالِمونَ ۝ ثُمَّ نُكِسوا عَلى رُءوسِهِم لَقَد عَلِمتَ ما هؤُلاءِ يَنطِقونَ ۝ قالَ أَفَتَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَنفَعُكُم شَيئًا وَلا يَضُرُّكُم ۝ أُفٍّ لَكُم وَلِما تَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ أَفَلا تَعقِلونَ ۝ قالوا حَرِّقوهُ وَانصُروا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فاعِلينَ ۝ قُلنا يا نارُ كوني بَردًا وَسَلامًا عَلى إِبراهيمَ ۝ وَأَرادوا بِهِ كَيدًا فَجَعَلناهُمُ الأَخسَرينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]

وذلك من خلال الوقوف مع خطوات دعوة إبراهيم لقومه في الآيات والتي هي:

- انتزاع إقرار من الكفار بحقيقة ما يؤمنون به
- بيان بطلان ما يدين به الكفار
  - بيان عجز آلهتهم عن فعل أي شيء
  - بيان استحقاق الله وحده للعبادة
- مواجهة الكفار لدعوة إبراهيم عليه السلام
  - السخرية والاستهزاء
  - التهديد والوعيد

- تحويل إبراهيم دعوته لقضية رأي عام
- مناظرة الكفار على الملأ

انتزاع إقرار من الكفار بحقيقة ما يؤمنون به

إن أول خطوة بدأ بها إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه هي سؤالهم عما يعبدون، حتى ينتزع منهم إقرار بحقيقة دينهم الذي يتدينون به فقال:

﴿ إِذ قالَ لِأَبيهِ وَقَومِهِ ما هذِهِ التَّماثيلُ الَّتي أَنتُم لَها عاكِفونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢]

إبراهيم عليه السلام بسؤاله قومه هذا السؤال يكون قد وضع يده على مكمن الشرك في دين قومه وهذا أمر في غاية الأهمية، لأنه سيناقش مظهرا من مظاهر الشرك الجلي، وليس أمرا نظريا قد لا يدركه كل الناس.

إذا سألت قومك ما دينهم سيقولون الإسلام بلا شك نحن مسلمون، لأنهم يسمون ما يدينون به الإسلام، لذلك سؤالك يجب أن يكون عن الطقوس التي يقومون بها والتي يظهر فيها الشرك البواح.

كان جواب قوم إبراهيم عليه السلام واضحا وصادقا فقد قالوا :

﴿ قالوا وَجَدنا آباءَنا لَها عابِدينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣]

إن القضية بالنسبة لقوم إبراهيم عليه السلام قضية تراث وليس قضية دليل أو منطق فهم يعبدون تماثيلهم نظرا لمكانتها التراثية وحسب

وكذلك كل الكفار في كل الأزمان، إنما يعبدون تراثهم الذي ورثوه عن آباءهم يتمسكون به لكونه جزءا من ذواتهم، وليس بالضرورة قناعة منهم به، وإنما لكونه جذورهم فهم يتمسكون به.

كفارنا ليسوا بدعا من الكفار، ولا خير من أولئكم، لذلك تجدهم ينتمون لتراثهم ويفتخرون به، ولو لم يتقيدوا به، أو يعرفوه أصلا.

ألا ترى الواحد منهم يعيش عيشة الملحد، ولا يطبق من الإسلام ولا شعيرة واحدة، ومع ذلك إذا قلت له أنه كافر يغضب ويزبد ويرعد، ليس حبا منه في الإسلام، ولا حمية منه للإسلام، وإنما لكونك بتكفيرك له تقطعه من تراثه وجذوره، وهذا ما لا يقبله أبدا، ويناصبك العداء بسببه، بالرغم من أنك لم تزد على حقيقته ونصحت له.

مثال آخر ظهر بكل وضوح في ردة فعل شعوبنا على الرسوم المسيئة لرسول الله صلى الله عليه وسلم, حيث انطلقت المسيرات واجتاح الغضب الشوارع, نصرة كما نزعم لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فهل كان الدافع فعلا نصرته صلى الله عليه وسلم ؟!

إذا كان الدافع نصرته صلى الله عليه وسلم ونحن صادقين في حبه, فلماذا لا نتبعه في حياتنا فعلا ؟!

ولماذا اتخذنا أئمة نتبعهم دونه صلى الله عليه وسلم, طاعنين بلسان حالنا في بلاغه وإمامته كما سبق وبينا في مقال الإمامة في الإسلام؟

أيهما أشد إساءة للنبي صلى الله عليه وسلم, الذي يرسم رسوما كاريكاتيرية في مجلة ملحدة, أم الشيخ المفتي الذي يفتي بكراهة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفعل شيوخ المذاهب ؟

لا شك أن المفتي بكراهة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد إساءة من الرسام الكافر, ولكن المفتي يحظى بقداسة التراث إله الجماهير, بينما الرسام لا يحظى بها, ومن ثم قامت الجموع ضد الرسام, وتركت الشيطان المفتي بينها ومجدته وقدسته, لأن المحرك لها ليس حب رسول الله صلى الله عليه وسلم, وإنما فقط الحمية لتراثها, والذي رسول الله صلى الله عليه وسلم جزء منه لا غير, للأسف الشديد.

ينبغي التنبيه إلى أننا في وقتنا الراهن نشهد أديانا مختلفة للفرد في آن واحد, أغلبها يستمد شرعيته من التراث, فالمرء اليوم في شعوب ما يعرف بالعالم الإسلامي له ثلاثة أديان يدين بها في آن واحد

في شعائره التعبدية يدين بالمذهب الذي يتمذهب به

في علاقاته الاجتماعية يدينه بعاداته وتقاليده

في حياته اليومية يدين بدين الدولة الحديثة وهو قانون الدولة يتحاكم إليه ويخضع له.

لذلك تأسيا بدعوة إبراهيم عليه السلام لقومه يجب على الداعية إبراز هذه الأديان المختلفة وبيان بطلانها كلها, فواقعنا يختلف عن واقعه بأنه عندنا عدة أديان جاهلية, بينما قومه كان عندهم دين واحد.

بيان بطلان ما يدين به الكفار

بعد أن انتزع منهم إقرار بحقيقة دينهم يبدأ ببيان ضلالهم وذلك من خلال :

بيان عجز آلهتهم عن فعل أي شيء وإعلان العداوة لهم.

أول نقطة أمر يبدأ به إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه هو تعرية آلهتهم أمامهم وبيان أنها لا تستحق العبادة فقال:

﴿ قالَ هَل يَسمَعونَكُم إِذ تَدعونَ۝أَو يَنفَعونَكُم أَو يَضُرّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣]

طبعا هم يعترفون بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولذلك أجابوه :

﴿ قالوا بَل وَجَدنا آباءَنا كَذلِكَ يَفعَلونَ ﴾[الشعراء: ٧٤]

بعد تعرية آلهتهم أمامهم يعلن صراحة دون مداهنة ضلال قومه وعداوته لما يعبدون من دون فقال:

﴿ قالَ لَقَد كُنتُم أَنتُم وَآباؤُكُم في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾[الأنبياء: ٥٤]

﴿ قالَ أَفَرَأَيتُم ما كُنتُم تَعبُدونَ۝أَنتُم وَآباؤُكُمُ الأَقدَمونَ۝فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إِلّا رَبَّ العالَمينَ ﴾[الشعراء: ٧٥-٧٧]

تكفير قومه كاستنتاج, وعداوته لما يعبدون من دون الله, هو التصديق العملي لتعرية آلهتهم, فهو بإعلانه عداوته لها يثبت أنها لا تملك ضرا, ولا ينبغي أن تخشى.

أنت أيضا عليك أن تبدأ بتعرية آلهة قومك كما فعل إبرهيم عليه السلام مع قومه, وإليك ما يساعدك في ذلك

ابدأ بتعرية الإله الحاكم وقانونه, فهو في واقع الأمر لا ينفع ولا يضر من نفسه, لأنه هو والحجارة سواء كلهم مفعول به لا فاعل فالأمر كله لله, لذلك عبادته من خلال الخضوع له أمر في غاية السخف.

يظهر عجز الحاكم وضعفه أكثر وقت القحط حيث تلجأ الناس إلى صلاة الاستسقاء, لذلك ذكر قومك بضعف آنذاك وكيف أن ما يعبدون من دون الله لم ينزل عليهم المطر.

تعرية مجتهدي المذاهب الذين يعبدهم الناس أيسر من تعرية الحاكم الإله, حيث يكفي التنبيه على كون فتاويهم ليست من القرآن والسنة وبيان تناقضها مع القرآن والسنة.

ينبغي أيضا تأسيا بدعوة إبراهيم عليه السلام لقومه أن تعلن لقومك ضلالهم وعداوتك لما يعبدون من دون الله إعلانا صريحا كما فعل إبراهيم عليه السلام مع قومه.

في نفس الوقت الذي عرى فيه إبراهيم عليه السلام آلهة قومه وأعلن عداوته لها أبرز وبأسلوب شخصي نعم الله عليه وعلى كل فرد, فقال :

﴿ فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إِلّا رَبَّ العالَمينَ۝الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهدينِ۝وَالَّذي هُوَ يُطعِمُني وَيَسقينِ۝وَإِذا مَرِضتُ فَهُوَ يَشفينِ۝وَالَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحيينِ۝وَالَّذي أَطمَعُ أَن يَغفِرَ لي خَطيئَتي يَومَ الدّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢]

الطابع الشخصي في الخطاب مهم حتى يتذكر المرء نعم الله عليه هو تحديدا, ويتذكر مدى افتقاره الدائم إلى رب العالمين سبحانه وتعالى, فيلجأ إليه ويوحده بالعبادة.

مواجهة الكفار لدعوة إبراهيم عليه السلام

لا يمكن أن يمر إعلان إبراهيم عليه السلام ضلال قومه وعداوته لما يعبدون من دون الله دون أن يلقى ردا من قومه, فإبراهيم خطر على الأمن القومي, هذا الرد تغيرت أساليبه, مع تغير أساليب دعوة إبرهيم عليه السلام في مواجهته وهذا ما سوف نتطرق إليه فيما يلي:

السخرية والاستهزاء

أول سلاح واجه به قوم إبراهيم عليه السلام دعوته لهم هو السخرية والاستهزاء فقالوا:

﴿ قالوا أَجِئتَنا بِالحَقِّ أَم أَنتَ مِنَ اللّاعِبينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]

السخرية عادة هي المرحلة الأولى من المواجهة مع الكفار, فهم لم يسمعوا قط أحدا يخبرهم بأنهم على ضلال ولذلك هذا الداعية الذي يكفرهم ويعاديهم لا شك في كونه مجنون حيث أن ما يقوله لا يقول به أحد

سيتهم أيضا بأنه شخص يحب الظهور ويتبع قاعدة خالف تعرف, وغير ذلك من التهم الجاهزة التي تهدف لإضعاف الحماس في نفس الداعية.

إن مرحلة السخرية هي أشد مرحلة قد يتعرض لها الداعية, حيث أن تأثيرها أشد وأبلغ مما سواها, فحين يدعو الداعية الناس, والناس تتجاهله تماما, بعد فترة سيحس بأن دعوته لا فائدة ترجى منها, وعليه أن يتوقف, فقد بلّغ وأعذر إلى الله وأنذر.

وهذه العقبة من أشد العقبات التي على الداعية أن يستعد لها نفسيا, ويخطط للتغلب عليها, حتى يجبر المدعو على التعامل مع الدعوة بالجدية المطلوبة, فهي ليست نزوة شاب ما تلبث أن تخبو.

وهذا بالضبط ما فعله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فحين واجهوا دعوته بالاستهتار واللامبالاة، غير أسلوبه فهددهم بأنه سيكيد لآلهتهم في قوله:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصنامَكُم بَعدَ أَن تُوَلّوا مُدبِرينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]

أنت أيضا عليك تأسيا بدعوة إبراهيم عليه السلام لقومه أن تغير من أسلوبك حتى يتعامل الكفار بالجدية المطلوبة مع دعوتك، ولا تقبل أن تطول فترة السخرية وذلك لسببين

أولا حتى لاتفت في عضدك وتنقص من عزيمتك فهي سلاح نفسي يوجه إليك له تأثير لا شعوري مع الوقت إذا لم تقم بمواجهته وإبطاله

ثانيا حتى لا تلتصق بك التهم التي يطلقها قومك سخرية منك كالتهمة بالجنون وغيرها، لأن ما تكرر تقرر، ولو طالت فترة السخرية سينطبع في أذهان الناس أنك فعلا مجنون ليس إلا

إبراهيم عليه السلام هدد قومه بالكيد الأصنامهم وفي هذا تحد لهم وبيان ضعف أصنامهم في نفس الوقت، ولذلك انتهوا من السخرية وانتقلوا للمرحلة الموالية

التهديد والوعيد

هذا التهديد منه صلى الله عليه وسلم لآلهتهم، جعل قومه يغيرون من أسلوب السخرية إلى التهديد، وذلك بأن يخوفوا إبراهيم عليه السلام من هذه الآلهة، يظهر هذا في قوله سبحانه:

﴿ وَحاجَّهُ قَومُهُ قالَ أَتُحاجّونّي فِي اللَّهِ وَقَد هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشرِكونَ بِهِ إِلّا أَن يَشاءَ رَبّي شَيئًا وَسِعَ رَبّي كُلَّ شَيءٍ عِلمًا أَفَلا تَتَذَكَّرونَ۝وَكَيفَ أَخافُ ما أَشرَكتُم وَلا تَخافونَ أَنَّكُم أَشرَكتُم بِاللَّهِ ما لَم يُنَزِّل بِهِ عَلَيكُم سُلطانًا فَأَيُّ الفَريقَينِ أَحَقُّ بِالأَمنِ إِن كُنتُم تَعلَمونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]

نعم كيف يخاف ما يشركون به، في نفس الوقت هم لا يخافون أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ؟!!

كيف للداعية إلى الله عز وجل أن يخاف من الطاغوت ويهابه، وهو مؤمن بالله عليه متوكل ؟!!

هذا عين المحال، والذي يخاف الطاغوت خوفا يمنعه من الدعوة إلى الله كما فعل الأنبياء، وفي نفس الوقت يبقى تحت سلطانه وهو قادر على الهجرة، مشرك بالله حيث جعل خيفة الطاغوت كخيفة الله أو أشد، فخوفه لم يعد ذلك الخوف الفطري وحسب، بل تجاوز الخوف

الفطري إلى العبادة حيث منع صاحبه من الصدع بالحق أمام الطاغوت كما أمر الله في قوله :

﴿ فَاصدَع بِما تُؤمَرُ وَأَعرِض عَنِ المُشرِكينَ ﴾[الحجر: ٩٤]

فهذه الآية ليست خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما تخاطب كل الدعاة الذين يتبعونه في سبيله في الدعوة إلى الله على بصيرة.

للأسف الشديد ينتشر الكثير من المشركين الذين يلبسون لباس الدعوة، ولكنهم يعبدون الطاغوت بخوفهم المفرط منه، فتراهم يتعذرون بأتفه الأسباب، كل الناس عندهم مخابرات، يخشون أن يفتضح أمرهم، وهم مع هذا يدعون التوحيد وملة إبراهيم، وإبراهيم منهم براء، فهو إمام المؤمنين لا يخاف الطاغوت ولا يمكن أن يخافه أصلا وهو مؤمن بالله كما أخبر الله عنه.

تحويل إبراهيم دعوته لقضية رأي عام

بالرغم من تغير الخطاب عند قوم إبراهيم عليه السلام، إلا أن التعاطي مع دعوته لا يزال على المستوى الفردي ولم تبلغ كل المجتمع، وهذا ما لا يقبله إبراهيم عليه السلام، فهو يريد أن يبلغ كل قومه، لا بعضهم، كما أنه أقسم، وسيبر قسمه، فلم يكن صلى الله عليه وسلم ليقول ما لا يفعل، معاذ الله.

نفذ إبراهيم وعيده، والذي كان الهدف منه جعل قضيته قضية رأي عام، وليس الهدف تكسير الأصنام في حد ذاته، فقد ترك كبيرهم ليقيم عليهم الحجة به، حين يرجعون إليه، وهذا مراده صلى الله عليه وسلم، حيث عبر القرآن عنه ب "لعل" ولعل تفيد الرجاء، فهو يرجوا من تكسير آلهتهم وترك كبيرهم أن يرجعوا إليه وتصبح قضيته قضية الرأي العام.

﴿ فَجَعَلَهُم جُذاذًا إِلّا كَبيرًا لَهُم لَعَلَّهُم إِلَيهِ يَرجِعونَ ﴾[الأنبياء: ٥٨]

إبراهيم حين أقدم على هذا العمل، لم يضع في حسبانه غضب قومه، ولا بطشهم، فكل ذلك لا يهمه ولا يعنيه في شيء، إنما همه بلاغ دعوته للكل، وهذا هو هم الداعية إلى الله حقا، الذي لا هم له سواه.

أنت أيضا عليك تأسيا بإبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه أن تحاول أن تجعل دعوتك قضية رأي عام بحيث تصل لكل الناس وتكون حديث الساعة غير آبه بما قد يصيبك جراء ذلك.

مناظرة الكفار على الملأ

لقد كانت ردة فعل قومه كما توقع بالضبط حيث أخبر الله عنهم في قوله:

﴿ قالوا مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظّالِمينَ۝قالوا سَمِعنا فَتًى يَذكُرُهُم يُقالُ لَهُ إِبراهيمُ۝قالوا فَأتوا بِهِ عَلى أَعيُنِ النّاسِ لَعَلَّهُم يَشهَدونَ۝قالوا أَأَنتَ فَعَلتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبراهيمُ۝قالَ بَل فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فَاسأَلوهُم إِن كانوا يَنطِقونَ۝فَرَجَعوا إِلى أَنفُسِهِم فَقالوا إِنَّكُم أَنتُمُ الظّالِمونَ۝ثُمَّ نُكِسوا عَلى رُءوسِهِم لَقَد عَلِمتَ ما هؤُلاءِ يَنطِقونَ۝قالَ أَفَتَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَنفَعُكُم شَيئًا وَلا يَضُرُّكُم۝أُفٍّ لَكُم وَلِما تَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ أَفَلا تَعقِلونَ ﴾[الأنبياء: ٥٩-٦٧]

لقد تحقق لإبراهيم صلى الله عليه وسلم ما أراد، حيث جمع الناس كلهم ليسمعوا بيانه الواضح الذي لا لبس فيه:

﴿ قالَ أَفَتَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَنفَعُكُم شَيئًا وَلا يَضُرُّكُم۝أُفٍّ لَكُم وَلِما تَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ أَفَلا تَعقِلونَ ﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧]

وهذا ما على الداعية اليوم أن يقوم به، حيث يبحث عن وسيلة أو حيلة يسمع الناس كلها بها دعوته مهما كلفه ذلك، وعليه أن يتوقع بعدها أن يلاقي ما لاقى إبرهيم عليه السلام من قومه، فمن سار على الدرب وصل، وفي درب إبراهيم محاولة حرقه بالنار، حيث أخبر ربنا عز وجل:

﴿ قالوا حَرِّقوهُ وَانصُروا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فاعِلينَ ﴾[الأنبياء: ٦٨]

فقد ينتهي المطاف بالداعية في هذه المحطة من درب إبراهيم عليه السلام، فيحرق ويفوز الفوز الكبير كما حدث لأصحاب الأخدود، وقد ينجيه الله من الحرق كما نجى إبراهيم :

﴿ قُلنا يا نارُ كوني بَردًا وَسَلامًا عَلى إِبراهيمَ۝وَأَرادوا بِهِ كَيدًا فَجَعَلناهُمُ الأَخسَرينَ ﴾[الأنبياء: ٦٩-٧٠]

ليواصل الدرب الوعر الشائك في ظاهره، والذي هو في حقيقته درب السكينة والطمأنينة بمعية الله الموصل إلى الجنة بإذن الله، فهل أنت ماض في درب إبراهيم والأنبياء من بعده، أم بائع آخرتك بدنياك والعياذ بالله ؟!